رثاء الجارم

للأستاذ محمود غنيم

« ألقيت في حفلة التأبين التي أقامتها جماعة دار العلوم المغفور له علي الجارم بك »

عرش ينوح أسى على سلطانه … قد غاب كسرى الشعر عن إيوانه
طوت المنون من الفصاحة دولة … ما شادها هارون في بغدانه
في ذمة الفن المقدس عازف … لقي الحمام على صدى ألحانه
لما تهامست الصفوف بنعيه … كاد الفؤاد يكف عن خفقانه
سألت حين قضى عليٌّ فجاءة : … هل حل يوم الحشر قبل أوانه ؟

سقط المؤبن وهو يسمع شعره … من ذا يؤبنه بمثل بيانه ؟ !
وصف الزمان لنا وجاد بنفسه … لتكون برهاناً على حدثانه
قال احذروا غدر الحمام معززاً … بحياته ما قاله بلسانه
لا تعجبوا من موته في حفله … إن الشجاع يموت في ميدانه
بطل المنابر ما له من فوقها … يهوي وكم عرفت ثبات جنانه؟
إن خانه ضعف الشيب فطالما … قهر المنابر وهو في ريعانه
كلا لعمري لم يخنه مشيبه … لكنّ حس المرء من خُوّانه
لم يجنها إلا رقيق شعوره … والمرهف الحساس من وجدانه
حر قضى متأثراً ببيانه … ولكم جنى فن على فنانه

يا شاعراً طار اسمه بقوادم … من عبقريته ومن إتقانه
ما دان يوماً للصغار بصيته … أو دان للزلفى برفعة شانه
والجد منه زائف وممحص … لا تخلطوا بلوره بجمانه
ما كل لماع يبرق ممطر … البرق غير الآل في لمعانه
عرش القوافي بعد موتك شاغر … يا طول ما يلقاه من أشجانه
قل للذي يرنو إليه بلحظه … هذا مجال لست من فرسانه
لا يمّ مثلك في الورى جارٍ وما … من حيلة العبد في جريانه
الطير ملء الروض أشكالاً فما … السمع لا يصغي سوى كروانه ؟
يمضي العظيم من الرجال فينبري … لمكانه خلفاء من أقرانه
والشاعر الموهوب فلتة دهره … إن مات أعيا الدهر سد مكانه

قل للرياض قضى عليٌّ محبه … ولطيرها الشادي على أفنانه
الشاعر الغرد المحلق في السما … بجناحه قد كف عن طيرانه
بكت اللآلئ بعده لألاءها … وتساءل الياقوت عن دهقانه
وتساءل التاريخ عمن شعره … كان السجل لحادثات زمانه
بكت الكنانة في عليٍّ شاعراً … جعل اسمها كالنجم في دورانه
عف اللسان مؤدب الأوزان لم … يتلق وحي الشعر من شيطانه
بل كان نفح الخلد أمتعنا به … حيناً وعاد به إلى رضوانه
للنيل شاد بشعره ما لم يشد … فرعون والهرمان من بنيانه
من كل بيت في السها شرفاته … تتلألأ الأضواء في أركانه
يبني الفراعنة الشداد أساسه … ويحار ذو القرنين في جدرانه
شعر إذا غني به لم يبق من … لم يروه كالبرق في سريانه
غنى الطروب به على قيثاره … وترنم المحزون في أحزانه
بهر المنابر حسنه فوددن لو … صيغت تلاندهن من عقيانه
ويكاد سامعه يمص لفظه … من قبل أن يسري إلى آذانه
تترى سلاسته الغزير فيقتفي … آثاره سيراً على قضبانه
حتى إذا هد المسير كيانه … حسب الورى بالصلد من صوانه
يا رب ديوان تأنق ربه … في طبعه وافتن في عنوانه
لا يسمع اليقظان وقع قريضه … حتى يدب النوم في أجفانه
والشعر إما خالد أو مدرج … من ليلة الميلاد في أكفانه

قالوا : عليٌّ شاعر؛ فأجبت : بل … ساقي عصير الكرم ملء دنانه
قم سائل الفقهاء: هل في شرعهم … حرج على ثمل بخمرة حانه ؟
كم خط من صور الحياة مداده … ما لم يخط مصور بدهانه
ببراعة لو أدركت موسى رأى … من سحرها ما غاب من ثعبانه
أبن القصائد كالخرائد كلها … بكر ، وبكر الشعر غير عوانه
أحيا لنا ابن ربيعة تشبيبها … وأعاد للأذهان عهد حسانه
شيخ يحس الشيخ عند نسيبه … بدم الشباب يسيل في شريانه
وإذا تحمس قلت عنترة انبرى … تحت العجاجة فوق ظهر حصانه
وإذا تبدى قلت لابس بردة … قد جاء من وادي العقيق وبانه
وإذا تحضر قلت نسمة روضة … من فرط رقته وفرط حنانه
يا طالما حمل الأثير نشيده … وكأنما هو عازف بكمانه
بغداد مصغية إلى أنغامه … ودمشق راقصة على عيدانه
وكأنما الهرمان عند هتافه … سمعا بلالاً هاتفاً بأذانه
يثني على الفاروق تحسبه فتى … ذبيان قد أثنى على نعمانه
والملك يظهر بالثناء جلاله … والشعر مثل الدر في تيجانه